

جسد المسيح الحي الأب جورج فلوروفسكي نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

كل المسيح: رأساً وجسداً (القديس أوغسطين) [١]

يكاد يكون من المستحيل البدء بتعريف دقيق للكنيسة لأنه، في الحقيقة، لا يمكن لأي شخص التظاهر باقتنائه السلطة العقائدية. لا يمكننا أن نجد مثل هذا التعريف في الكتاب المقدس أو عند الآباء أو في القرارات أو القوانين الصادرة عن المجامع المسكونية، أو حتى في الوثائق اللاحقة. إن النصوص العقائدية التي تم وضعها في الكنيسة الشرقية في مناسبات مختلفة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والتي غالباً ما تُعتبر (خطأً!) "كتباً تأويلية" [٢] للأرثوذكسية، لا تقدم بحد ذاتها تعريفاً للكنيسة، بل مجرد إشارة إلى المادة ذات الصلة من العقيدة متنوعة ببعض التفسيرات.

إننا متفاجئون من عدم وجود فصل خاص عن الكنيسة في أعمال الآباء القديسين النظامية. يقول الأسقف بيير باتيفول عن أوريجانوس: لا تدرج الكنيسة ضمن الموضوعات التي يدرسها كخبير [بشكل صريح] في "في المبادئ". فهو يعالج الوحدة الإلهية، ويعالج أشياء الزمان الأخير، وحتى التقليد ودستور الإيمان - لكنه لا يعالج الكنيسة. إنه إغفال مستغرب، كان مقدراً له أن يستمر في العقائد اليونانية - على سبيل المثال في العظة التعليمية للقديس غريغوريوس النيصي، وخاصة في عمل القديس يوحنا الدمشقي، وهو إغفال تكرر أيضاً في السكولاستيكية [٣].

في الحقيقة، هذا ليس "إغفالاً" على الإطلاق، إذ يمكننا أن نجد عند الآباء أكثر بكثير مما نتوقعه عن طبيعة الكنيسة ودعوتها. وهذا "الإغفال" لا يقتصر فقط على "العقائد الرومية": لقد كان نموذجياً لكل لاهوت ما قبل السكولاستيكي والقرون الوسطى. حتى توما الأكويني يتحدث عن الكنيسة بشكل عابر وحسب. ومع ذلك، فإن حقيقة الكنيسة هي دائماً الأساس الذي لا غنى عنه للصرح العقائدي بأكمله، يمكننا حتى القول أنها قاعدته الوجودية. من المسلم به أن ما نجده عند المعلمين العظماء هو رؤية وذكاء ومجد وحسد وشخصية متميزة، أكثر منه فكرة مجردة أو مفهوم رسمي محدد بدقة. ولا ينشأ هذا الغياب عن التعريفات الواضحة عن أفكار مشوشة أو من غموض الإيمان. على العكس من ذلك، لم يكن الآباء القدماء منشغلين بشكل مفرط بالصيغ على وجه التحديد، لأن حقيقة ظفر كنيسة الله المقدسة كانت في رؤيتهم الروحية واضحة بشكل لا يرقى إليه الشك. لا يعرف الإنسان ما هو بديهي.

إن الكنيسة هي حقيقة يعيشها الإنسان أكثر من كونها موضوعاً يحلله ويدرسه. تكلم الأب سرجيوس بولغاكوف جيداً عن هذا السؤال: "تعال وانظر - لا يتعرف الإنسان على الكنيسة إلا بالخبرة والنعمة والاشترك في حياتها." [٤] وما هو أكثر قيمة بالنسبة للآباء هو بالتحديد هذه النظرة الشمولية، هذا المنظور لخطة الله، الذي به يُنظر إلى سر الكنيسة ويصار إلى التأمل فيه. إن منظور الإيمان هذا هو الذي أصبح للأسف محجوباً في العصور اللاحقة. ومن هنا فإن الحاجة الملحة إلى تعريفات رسمية فرضت نفسها.

من الواضح أن التعريفات الحالية [للكنيسة] التي نجدها اليوم في كتيباتنا اللاهوتية وحتى في تعاليمنا الدينية هي حديثة نسبياً - وأن صيغ اللاهوتيين الشرقيين تستند إلى الأمثلة الغربية. حتى في الغرب، وُضعت التعريفات الرسمية الأولى في زمن الإصلاح، في كنيسة روما أيضاً، بروح الخلافات الطائفية وبيئية جدلية. كان الهدف منها هو تلبية متطلبات عصر معين أكثر من التعبير عفويًا عن مجمل الخبرة الروحية للكنيسة الحقيقية الجامعة. جميع هذه التعريفات كانت "صغيرة" ظرفية. وسيكون من سوء الفهم التام لطبيعتها وأهميتها اللاهوتية اعتبارها نهائية وغير قابلة لإعادة الصياغة. في ظروف تاريخية معينة أصر

البعض، مع التبرير، على منظورية الكنيسة ووصفها بأنها "مجتمع" (أو "جماعة")، على وجه التحديد، إذ في ذلك الوقت بالذات، كان هذا هو جوهر الجدل. لكن من الطبيعي أن هذه التعريفات نُتبت أنها غير كافية بل وخادعة عندما تغيّر المناخ الروحي. حدث هذا في الغرب خلال فترة التجديد اللاهوتي في القرن التاسع عشر، في ما يسمى العصر "الرومانسي"، مع ازدهار الأفق الروحي والفلسفي، الذي بفضلها ظهرت الطبيعة العضوية للكنيسة في وضوح النهار: علينا فقط أن نذكر ج.أ. موهلر (J. A. Möhler) [٥] مدرسة تيوبنجن الكاثوليكية.

في الشرق الأرثوذكسي، انطلقت نفس الحركة التنقيحية بواسطة مقال [أليكسي] خوميياكوف المنهجي حول وحدة الكنيسة، والذي ربما كان مستوحى من موهلر [٦]. ولكن قبل خوميياكوف بفترة طويلة، وبعمق أكبر وسلطة، قدم الميتروبوليت العظيم فيلاريت موسكو [٧] في عظاته رؤية أوسع وأكثر حيوية [٨]. كل هذه الأعمال كانت مستوحاة إلى حد كبير من الآباء. وراء ما أسميناه الإغفالات مصدر رؤيا وحياء لا ينضب. إن التجديد الليتورجي اللاحق استوحى إلهامات حيوية أخرى من هذا المصدر. ويمكننا أن نستخلص قدراً كبيراً من النور فيما يتعلق بسر الكنيسة من معلمي النقوى الليتورجية، كما كان الحال في روسيا، منهم على سبيل المثال الأب الشهير يوحنا كرونشتادت (١٩٠٩+) [٩].

لقد أدرك البعض مؤخراً أن عقيدة الكنيسة لا تزال في مرحلة ما قبل اللاهوت [١٠]. من المؤكد أن التعريفات التقليدية تنتمي فعلياً إلى الأكاديمية أكثر من الكنيسة. فهي لا تسندها أي سلطة جليلة بالمعنى الدقيق للكلمة، ولهذا السبب لا ينبغي اعتبارها كاملة أو الزامية. هي بالأكثر لاهوتية وليست كلها عقائدية، تقريبية ومؤقتة، تكهنات مدرسية، آراء خاصة لللاهوتيين، حتى ولو كانت مقبولة على نطاق واسع (أو حتى "بشكل عام"). لاحظ العديد من اللاهوتيين، من الكاثوليك والأرثوذكس، بوضوح أن الكنيسة نفسها لم تحدّد بعد جوهرها وطبيعتها الصحيحة. يقول روبرت جوش: "الكنيسة حتى يومنا هذا لم تحدد نفسها بعد" [١١]. إذا اقترحنا تجاوز هذه التعريفات المعتادة، فإننا لا نقترح أي تنقيحات عقائدية، بل ما نقترحه هو تعديل لاهوتي جديد لصيغتنا على ضوء تجربة روحية أكثر عمقاً. يمكننا الكلام بدلاً من العودة إلى تقليد الآباء. في هذا اليوم يجب أن نتجاوز المناقشات والخلافات الحديثة لإيجاد منظور تاريخي أوسع، عالمي حقاً حتى (الذي آمن به الجميع في كل مكان ودائماً) [١٢] أن نكتشف مجدداً "التجربة الجامعة (المتكاملة)" التي تسعى إلى شمول كامل الخبرة التي اكتسبتها الكنيسة في رحلة حجّها عبر العصور.

كما يجب أن نعود من حجرة الدراسة إلى الهيكل، إلى الكنيسة التي تعشق وتصلّي (الكنيسة المصلية) التي تشهد على إيمانها ورجائها. وربما علينا أيضاً استبدال المفردات السكولاستيكية في اللاهوت بلغة العبادة المجازية الرمزية، التي هي أيضاً لغة الكتاب المقدس. إن توضيح طبيعة الكنيسة بالذات ووصفها ممكن بسهولة أكبر من تحديدها بشكل صحيح، وهذا لا يمكن إنجازه إلا من داخل الكنيسة. على الأرجح أن مثل هذا الوصف لن يقنع الذين ينتمون إلى الكنيسة. وحده الإيمان يستطيع معاينة السر. إن الحقيقة المسيحية واحدة وغير قابلة للتجزئة ولا ينبغي لنا، كما أننا لا نستطيع، أن نفصل بين عناصرها المكوّنة - وإلا فإننا نجازف بتشويهها وإساءة تقديرها. وبالتالي، إن الطريقة اللاهوتية الصحيحة هي دائماً طريقة شاملة. الكنيسة هي الجوهر سرّ الخلاص الحيوي. إنها خليفة جديدة من الله، وخلاصة حية لعمل المسيح الخلاصي. إنها مكان ونمط وجوده المستمر في العالم حتى نهاية الزمان. بل وأكثر من هذا: الكنيسة هي المسيح نفسه، المسيح كلّهُ، للمسيح، وبحسب صياغة القديس أغسطينوس: "يسوع المسيح منسكباً ومُتناولاً" (بوسيه) [١٣]. لقد عبّر أوريغانوس حسناً: "لا يمكن العثور على ابن الله إلا في جماعة المؤمنين، وهذا ممكن لأنه يعيش فقط في وسط أولئك الذين يتحدون" [١٤].

ليس لاهوت الكنيسة إلا فصلاً، إنما فصلاً حاسماً، من الخريستولوجيا. وبدون هذا الفصل، سنكون الخريستولوجيا نفسها غير مكتملة. إن سر الكنيسة في العهد الجديد يعلن في سياق الخريستولوجيا. لقد

قدّمه الآباء الروميون واللاتين بطريقة مماثلة. يقول القديس أثناسيوس: "كلمة الله صار إنساناً لنصير الله" [١٥].

إن كنيسة المسيح هي بالتحديد المكان السرّي الذي يتمّ فيه ويستديم "تقدّيس" أو "تأليه" (theosis) البشرية من خلال عمل الروح القدس. في كل ما يتعلق بالمسيح، "يُنَاوَلُ المسيح في هذه الوديعة، أي الروح القدس"، كما يقول القديس إيريناوس. فهو يقول أيضاً إنها "باب الحياة" [١٦]. الكنيسة ذاتها بوجودها هي الشهادة الدائمة للمسيح، وتأكيد انتصاره ومجده وإعلانها. حتى يمكننا القول إنها خلاصة جميع أعماله. الكنيسة هي المسيحية. ليس فقط عقيدة صحيحة، قاعدة لطريقة حياة محددة، بل حياة جديدة، لمّ شمل الإنسان إلى الله، شركة حقيقية وصميمية معه، بالنعمة كما بالإيمان. ومع ذلك، فإن الكنيسة هي أيضاً مؤسسة تاريخية حقيقية وواقع أرضي ومنظور. بكونها تجسداً للكلمة، كانت أيضاً حدثاً تاريخياً، رغم أنه سري ولا يُدرك إلا بالإيمان. إن لِسْرَ الكنيسة بنية تناقض القوانين تماماً، مثل سر المسيح، التناقض الكامن في عقيدة خلقيدونية. حقيقتان، إلهي وإنساني، بلا امتزاج، لكن في اتحاد كامل لا يتجزأ. علينا أن نميّز بينهما بجديّة، لكننا لا نجرؤ على الفصل بينهما. إن التعريف الدقيق الوحيد للكنيسة هو أنها المسيحية كاملة. وربما كان الأب بافل فلورنسكي محقاً في الإصرار: "فكرة الكنيسة غير موجودة، لكن الكنيسة نفسها موجودة، ولكل عضو في الكنيسة، الحياة في الكنيسة هي أكثر الأشياء التي يعرفها تحدياً ووضوحاً" [١٧].

† This is the introduction to Georges Florovsky's extended essay 'Le Corps du Christ vivant: Une interprétation orthodoxe de l'Église' ('The Body of the Living Christ: An Orthodox Interpretation of the Church') published in Georges Florovsky, Franz-J. Leenhardt, Regin Prenter, Alan Richardson and Ceslas Spicq, *La Sainte Église universelle: Confrontation oecuménique (The Holy Universal Church: An Ecumenical Confrontation)* (Neuchâtel CH: Delachaux & Niestlé, 1948), 9-57. This book, which also contains essays by Protestant and Roman Catholic theologians, was prepared in the context of the ecumenical discussions leading to the establishment of the World Council of Churches at its first assembly held in Amsterdam from 22 August to 4 September 1948. A shorter English version of Florovsky's essay was published as 'The Church: Her Nature and Task' in *The Universal Church in God's Design* (London: Student Christian Movement, 1948). There is a complete English translation of the essay published by the Orthodox journal *The Wheel: The Body of the Living Christ: An Orthodox Interpretation of the Church*, trans. and introd. Robert M. Arida (Boston: The Wheel Library, 2018). (See <https://www.wheeljournal.com/> (accessed 22 April 2019)). This translation from the original French version is by Paul Ladouceur (Blane #93d). This text is taken from: *The Patristic Witness of Georges Florovsky. Essential Theological Writings*. Edited by Brandon Gallaher and Paul Ladouceur. T&T CLARK. Bloomsbury Publishing Plc. London. 2019. pp 273-277.

- 1 A key phrase for Florovsky: 'For Christ is not in the head or in the body, but Christ is wholly in the head and in the body [non enim christus in capite et non in corpore, sed christus totus in capite et in corpore]' (Augustine, *Tractates on the Gospel of John* 28-54, trans. John W. Rettig, FC 79 (Washington, DC: Catholic University of America Press, 1993), 28. 1. 3-13 at 3/ In *Iohannis evangelium tractatus CXXIV*, PL 35.1622) [Eds.].
- 2 'Symbolic books' is an older academic term favoured by non-Orthodox scholars (Orthodox scholars like Florovsky objected to it as misleading) for the various Orthodox doctrinal statements since the seventh and last ecumenical council in 787 that have achieved considerable recognition in the Orthodox Church. These documents include patriarchal encyclicals, statements or confessions of faith, decisions of local councils, patriarchal correspondence with non-Orthodox and catecheses approved by local churches. For a list of the main texts considered 'symbolic books', see Timothy (Kallistos) Ware, *The Orthodox Church* (London: Penguin, 1997), 203 [Eds.].
- 3 Pierre Batiffol, *L'Église naissante et le catholicisme [The Emerging Church and Catholicism]* (Paris: J. Gabalda, 1927), 395-396 [GF].
- 4 Sergius Bulgakov, *The Orthodox Church* [1935] (Crestwood, NY: St Vladimir's Seminary Press, 1988), 3.
- 5 See the discussion of Möhler's influence on Florovsky in the 'Introduction' to this book, 14-17; Ch. 8, 'Western Influences in Russian Theology', n. 62, 145; and Ch. 11, 'The Legacy and the Task of Orthodox Theology', n. 12, 189, in this book [Eds.].
- 6 See Ch. 8, 'Western Influences in Russian Theology', n. 68, 147; and Ch. 11, 'The Legacy and the Task of Orthodox Theology', n. 11, 189, in this book [Eds.].

- 7 On Met. Philaret (Drozdov) (1782-1867), see Ch. 1, 'Creation and Createdness', n. 13, 36, in this book [Eds.].
- 8 It is true that in his Catechism (published with the approval of the Holy Synod of Russia in 1823), Philaret of Moscow remained faithful to contemporary school formulae. See especially the magisterial work of Fr Albert Gratieux, A. S. Khomiakov et le mouvement Slavophile [A.S. Khomiakov and the Slavophile Movement], 2 vols. (Paris : Éditions du Cerf, 1939), in the collection Unam Sanctam, 5 and 6. On Philaret, see I. N. Korsunsky, The definition of the Church in Philaret of Moscow (Khristianskoe Chtenie, 7-8 [July-August 1895]), 47-90; or Aleksei Gorodkov, Dogmatic Theology in the Writings of Philaret of Moscow (Kazan : Tip Gubernskogo pravleniia, 1887) (both in Russian) [GF].
- 9 St John of Kronstadt (1829-1908) was a popular pastor of the port city of Kronstadt, near Saint Petersburg, author of My Life in Christ. See John Iliytch Sergieff (John of Kronstadt), My Life in Christ: Moments of Spiritual Serenity and Contemplation, of Reverent Feeling, of Earnest Self-Amendment, and of Peace in God, trans. E. E. Goulaeff (1897) (Jordanville, NY: Holy Trinity Publications, 2000) [Eds.].
- 10 Cf. Mannes Dominkus Koster, Ekklesiologie im Werden [Ecclesiology in the Making] (Paderborn : Bonifacius-Druckerei, 1940). This was strongly highlighted more than a half century ago in Russian theology by A. L. Katansky, professor at the St Petersburg Theological Academy [GF].
- 11 Robert Grosche, Pilgernde Kirche [The Pilgrim Church] "Die Kirche selbst hat sich bis heute noch nicht definiert" (Freiburg im Breisgau : Herder Verlag, 1938), 27. See also Matthias Joseph Scheeben, Dogmatik (Freiburg im Breisgau : Herder, 1883-1887), Vol. IV, 290-291; or Mgr Bernhard Bartmann, Précis de théologie dogmatique [Precis of Dogmatic Theology] (French trans.; Mulhouse FR: Éditions Salvator, vol. II, 1944), 146: 'We must note on this question that the Church existed for some fifteen hundred years without reflecting on her nature and without seeking a logical definition - and this applies to the Western Church as well as to the Eastern Church.' On Orthodox theology, see Stefan Zankov, Das orthodoxe Christentum des Ostens, sein Wesen und seine gegenwärtige Gestalt [Orthodoxy Christianity in the West: Its Essence and Present Form] (Berlin : Erschienen im Furche-Verlag, 1928), 65 and the notes (there is an English translation by Dr Donald Lowrie, The Eastern Orthodox Church (Milwaukee, WI : Morehouse, 1929), but without notes) [GF].
- 12 A famous phrase of St Vincent of Lérins (+c. 445) from Commonitorium [Aide-mémoire] I.2 (PL 50.640). See Florovsky's discussion of this phrase: Ch. 13, 'Saint Gregory Palamas and the Tradition of the Fathers', 221-222, in this book [Eds.].
- 13 On Jacques-Bénigne Bossuet (1627-1704) and the reference for the citation, see Ch. 4, 'The Lamb of God', n. 1, 82, in this book [Eds.].
- 14 Origen, Commentaria in Evangelium secundum Matthaeum [Commentaries on the Gospel according Matthew], 14.1, PG 13.1188 [GF].
- 15 St Athanasius, Oratio de Incarnatione Verbi [Oration on the Incarnation of the Word], 54. PG 25.192B. French translation by Fr Pierre Thomas Camelot (Discours contre les païens Incarnation du Verbe [Orations against the Pagans: The Incarnation of the Word] [Paris : Le Cerf, SC 18, 1st ed., 1947]), 18, 312; cf. Introduction, 90; and especially Fr Louis Bouyer, L'Incarnation et l'Église-Corps du Christ dans la théologie de saint Athanase [The Incarnation and the Church-Body of Christ in the Theology of St Athanasius] (Paris : Cerf, 1943) (Unam sanctam, 11) [GF].
- 16 St Irenaeus, Adversus haereses, III, 24, 1 and I, 4, 1. PG 7.966 and 855 [GF].
- 17 Pavel Florensky, Der Pfeiler und die Grundfeste der Wahrheit [The Pillar and Ground of Truth], in N. von Bubhoff & H. Ehrenberg, eds., Östliches Christentum. Dokumente II: Philosophie (2 vols.) (Munich: C. H. Beck, 1925), vol. 2, 30: 'There is no concept of ecclesiality, but ecclesiality itself is, and for every living member of the Church, the life of the Church is the most definite and tangible thing that he knows. But the life of the Church is assimilated and known only through life - not in the abstract, nor in a rational way. If one must nevertheless apply concepts to the life of the Church, the most appropriate concepts would be not juridical and archaeological ones but biological and aesthetic ones' [GF]. [In the main text, Florovsky translates from the 1925 German translation of Florensky's book and he cites the German text in his footnote. The preceding translation is from Pavel Florensky, The Pillar and Ground of Truth: An Essay in Orthodox Theodicy in Twelve Letters [1913], trans. Boris Jakim (Princeton, NJ : Princeton University Press, 1997), 8 [Eds.].]